252 - ـ فصل : الحزم كتمان الحب و البغض .

من أراد اصطفاء محبوب المحبوب نوعان : امرأة يقصد منها حسن الصورة و صديق يقصد منه حسن المعنى .

فإذا أعجبتك صورة إمرأة فتأمل خلالها الباطنة مديدة قبل أن يتعلق القلب بها تعلقا محكما فإن رأيتها كما تحب ـ و أصل ذلك كله الدين كما قال : [عليك بذات الدين] ـ فمل إليها و استولدها .

و كن في ميلك معتدلا فإنه من الغلط أن تظهر لمحبوبك المحبة فإنه يشتط عليك و تلقى منه الأذى من التجني و الهجران و الإدلال و طلب الإنفاق الكثير ـ و إن كانت تحبك ـ لأن هذا إنما يجتلبه حب الإدلال و التسلط على المقهور .

و ثم نكتة عجيبة و هو أنك ربما عملت بمقتضى الحال الحاضرة و هي تحكم بكمال الحب ثم إن ذلك لا يثبت إليك فتقع و تبقى مقهورا و يصعب عليك الخلاص .

و ربما تمكنت بمعرفة سرك أو بأخذ كثير من مالك .

و من أحسن ما بلغني في هذا أن جارية لبعض الخلفاء كانت تحبه حبا شديدا و لا تظهر له ذلك فسئلت عن هذا فقالت : لو أظهرت ما عندي فجفاني هلكت قال الشاعر : .

(لا تظهرن مودة لحبيب ... فترى بعينك منه كل عجيب) .

(أظهرت يوما للحبيب مودتي فأخذت من هجرانه بنصيبي) .

و هكذا ينبغي أن تكتم بعض حبك للولد لأنه يتسلط عليك و يضيع مالك و يبالغ في الإدلال و يمتنع عن التعلم و التأدب .

و كذلك إذا اصطفيت صديقا و خبرته فلا تخبره بكل ما عندك بل تعاهده بالإحسان كما تتعاهد الشجرة فإنها إذا كانت جيدة الأصل حسنت ثمرتها بالتعاهد ثم كن منه على حذر فقد تتغير الأحوال و قد قيل : .

(إحذر عدوك مرة و احذر ... صديقك ألف مرة) .

(فلربما انقلب الصديق ... فكان أدرى بالمضرة) .

و أما إذا أبغضت شخصا لأنه يسوؤك فلا تظهرن ذلك فإنك تنبهه على أخذ الحذر منك و تدعوه إلى المبارزة فيبالغ في حربك و الإحتيال عليك بل ينبغي أن تظهر له الجميل إن قدرت و تبره ما استطعت حتى تنكسر معاداته بالحياء من بغضك فإن لم تطق فهجر الجميل لا تبين فيه ما يؤذي .

و متى سمعت عنه كلمة قذعة فاجعل جوابها كلمة جميلة فهي أقوى في كف لسانه .

و كذلك جميع ما يخاف إظهاره فلا تتكلمن به فربما وقعت كلمة أسقطت بها عز السلطان فنقلت إليه فكانت سبب هلاكك .

أو عن صديق فكانت سبب عداوته أو صرت رهينا لمن سمعها خائفا أن يظهرها .

فالحزم كتمان الحب و البغض .

و كذا ينبغي أن تكتم سنك فإن كنت كبيرا استهرموك و إن كنت صغيرا استحقروك .

و كذلك مقدار مالك فأنه إن كان كثيرا نسبوك في نفقتك إلى البخل و إن كان قليلا طلبوا الراحة منك .

و كذلك المذهب فإنك إن أظهرته لم تأمن أن يسمعه مخالف فيقطع بكفرك .

و قد أنشدنا محمد بن عبد الباقي البزار : .

(احفظ لسانك لا تبح بثلاثة ... سن و مال ما استطعت و مذهب) .

(فعلى ثلاثة تبتلى بثلاثة ... بمموه و مخرف و مكذب)